عفيف البهنسي: صورة الفنان أستاذاً

عبد النبي اصطيف

التلمذة نوعان: تلمذة الحضور وتلمذة السطور، وقد تتلمذت على عفيف البهنسي حضوراً وسطوراً: درست عليه علم الجمال وتاريخ الفن والعمارة في سنة دبلوم الدراسات الأدبية عام ١٩٧٣، وقرأت معظم كتبه المتصلة باهتماماتي المختلفة قبل ذلك وبعده، ولا أزال أتابع ما ينشر، وقد سررت أيما سرور، وأفدت أيما فائدة من قراءة كتابه الأخير عفيف البهنسي والجمالية العربية: دراسة وحوار الذي يضم حواراته مع الدكتور عزت السيد حسن، والذي تشرفت الهيئة العامة السورية للكتاب بنشره في مطلع عامنا هذا، عام دمشق عاصمة الثقافة العربية.

وعلى الرغم من مضي نحو من ثلاثة عقود ونصف على أول لقاء شخصي لي بعفيف البهنسي، وعلى الرغم من كل ما أبانت لي عنه هذه السنون لي من ودّ واحترام ولطف بل رقة وسمو في تعامله معي، ومع الآخرين عامة، فقد ظل يشغل في نفسي منزلة الأستاذ الذي تأخذك مهابته، ويأسرك كماله، ويفتنك علمه، ويأخذ بلبك بيانه، بل سحره الحلال، وتغوي عقلك رؤيته التاريخية العميقة لمسيرة الأمة التي ينتمي إليها. بل إنه كثيراً ما بدا لي صورة عن رجال عصر النهضة الذين تعددت وجوه إبداعهم وأغنوا الحضارة الإنسانية في ميادين عديدة من المعرفة والعلم والفن. فهو الفنان التشكيلي (الرسام والنحات ومصمم الشعارات والطوابع البريدية والعملة الورقية السورية والصروح والمتاحف)، وهو مؤرخ الفن القومي والعالمي، وهو الناقد الفني، وهو عالم الجمال، وهو المفكر والمثقف، وهو الناقد التطبيقي، وهو المحرّر، وهو الإذاعي، وهو الإداري، وهو المنشئ والمؤسس للمتاحف والمعاهد والمراكز الفنية التشكيلية، وهو الأستاذ الجامعي، والمحاضر القطري والعربي والدولي في مختلف المراكز الثقافة والجامعات ومراكز الأبحاث، وهو بعد ذلك الشاعر...، إنه، باختصار شديد، الإنسان المتعدد المواهب والقدرات والإنجازات، الذي جسّد عظمة المعجزة الإنسانية التي خلقها الله في أحسن تقويم، وكان في عمله خير شاكر لنعمة الحياة التي أنعم الله بها عليه، وكان يومه، في عزمه وحزمه، مثل يوم أبي تمام، مثلما كانت ساعاته مثل ساعات هذا الأخير حقباً ممتدة:

يومي من الدهر مثل الدهر ممتلئ
عزماً وحزماً وساعي منه كالحقب

والحقيقة أن هذه الصورة قد تكونت لديّ نتيجة تجربة متميزة مع الرجل امتدت ثلاثة عقود ونصف، وبدأت بسنة دراسية غنية على المستويين المعرفي والإنساني عشناها، نحن طلاب دبلوم الدراسات الأدبية في قسم اللغة العربية وآدابها، مع عفيف بهنسي: الأستاذ والإنسان على مدى عام كامل، كانت تجمعنا فيه القاعة الشامية الرحبة التي تجمع الفنون التطبيقية الشامية والتي تعد بحق فسحة فريدة بما تنطوي عليه من جمال وروعة يجعلانها مصدر إلهام لمن يتردد عليها بانتظام أو حتى لمن يزورها مرة واحدة. وقد أفسح لنا أستاذنا فيها زاوية كنا نتحلق فيها حول طاولة مستديرة تضمنا معه، وكان تحلقنا هذا مؤشراً واضحاً على فهم سام لطبيعة العلاقة بين الأستاذ والتلميذ والتي تقوم في رأي أستاذنا على الندية، والديمقراطية، وإلغاء أي حاجز يمكن أن ينهض بين الشيخ والمريد.

وأما طريقة هذا الشيخ فكانت إثارة اهتمام مريديه بالقضية التي أرادها موضوعاً للقائه، ثم المضي للحديث عنها على نحو موجز، وإفساح أكبر قدر ممكن لشركاء الحلقة للإدلاء بآرائهم فيها بحرية وثقة كان مصدرهما رحابة صدر الأستاذ، وسعة أفق تفكيره، وثقته بنفسه وبهم، وكان شرطه الوحيد الذي يصرّ عليه دائماً

هو الصدور في الرأي عن معرفة، وشفعه بالدليل، والسعي الجاد لإقناع الآخرين به من خلال المحاجة الهادئة المتزنة التي تحترم حق الآخرين في إبداء ما يرون من ملاحظات وانتقادات بدرجة تمسكها بحق المرء في التعبير عن رأيه بالحرية العارفة الخبيرة.

وفضلاً عما اغتنينا به ذلك العام من معرفة بعلم الجمال، وتاريخ فن الرسم وفن النحت وفن العمارة في الشرق والغرب، وأنظار

المفكرين العرب القدامى في الجمال، وموقف الإسلام من الفن وبخاصة فني الرسم والنحت، ووجوه من التفاعل المثري للتجربة الفنية بين الفن الأوربي والفن العربي الإسلامي، فقد قام كل منا باختيار موضوع من الموضوعات الكثيرة التي طرحها أستاذنا علينا ليكون موضوعاً لحلقة بحث تعدّ بإشرافه، وتطبع وتوزع على جميع الزملاء، وتكون بالتالية رافداً مهما للمعرفة الفنية والجمالية التي رمى إليها واضعو مناهج دبلوم الدراسات الأدبية عندما قرروا على طلبته مساق الدراسات الفنية والجمالية. ولا زلت أذكر كيف أن التعاون ما بين أستاذنا الدكتور محمد إحسان النص الذي كنا نقرأ عليه كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي وبين أستاذنا البهنسي في الإشراف على حلقة بحثي قد أثمر دراسة حملت عنوان: "أصالة معاصرة في مفاهيم الشعر والنثر عن أبي حيان التوحيدي"(١)

ونشرت لاحقاً في مجلة الموقف الأدبي بتشجيع من الأستاذ عادل أبو شنب الذي كان آنذاك سكرتير تحريرها. ولم تكن هذه الدراسة الثمرة الوحيدة التي قطفتها من غرس الأستاذين، بل كان ثمة ثمار طيبة، رافقتني منذ ذلك التاريخ، غرس بذورها ورعاها الأستاذ البهنسي، وكان من بينها موضوع الاستشراق الفني الذي أتى على الكثير مما كنت أوفره من مال من منحتي المتواضعة عندما كنت طالباً في جامعة أكسفورد لشراء كتب الفنانين المستشرقين المرتفعة الثمن، وزيارة معارضهم، وتتبع ما يؤلف عنهم، وما يكتب في الدوريات العامة والمتخصصة حتى كان لي من ذلك مكتبة لا بأس بها تغني فهمي لهذا الوجه المهم من علاقة الشرق بالغرب.

وكان من بينها كذلك تاريخ الفن (الرسم والعمارة والنحت بشكل خاص) في الغرب الذي تحول إلى فسحة محببة إلى النفس أتخفف فيها من عناء البحث في نظريات النقد والدرس المقارن للأدب، وكان لهذا تأثيره المهم في تنبهي للعلاقات المتبادلة ما بين الفنون الجميلة أو لما يسمى عادة بتراسل الفنون، الذي غدا لاحقاً من اهتمامات الدرس المقارن الرئيسية في الربع الأخير من القرن الماضي، وفي حفز العديد من دراساتي المقارنة التي كان آخرها دراسة لآية النور بينت فيها كيف أن تحويل الصورة اللفظية إلى صورة بصرية شرط لازب لاستيعاب دلالاتها القريبة والبعيدة، ولاسيما تجسيدها البصري لحضور الإيمان في النفس الإنسانية.

وكان من بينها أخيراً الكشف عن وحدة الفن العربي وبخاصة في مجالات العمارة والرسم والزخرفة والفنون التطبيقية التي تجسدت عبر العصور في هوية، لا يمكن أن يخطئها دارس، ميزت هذا الفن وجعلته أجمل إفصاح وأروعه عن الإنسان العربي الذي عمر قلب العالم القديم ولا يزال.

هذه هي بعض وجوه حضور أستاذي عفيف البهنسي في نفسي وروحي وعقلي وإنتاجي، الذي لم يكن غير ثمرة الغرس الطيب، لأبويّ، رحمهما الله، ولأساتذتي الذين كانوا مثال القدوة التي كنت أتطلع إليها ولا أزال، والتي كان عفيف البهنسي تجسيداً حياً سامياً لها، وكان بحق منارة يهتدي بها كل من فُتن بهذا الوطن مكاناً وسكاناً، وكان كذلك علماً من أعلام بلاد الشام الذين تفخر بهم الأجيال وستظل تفخر بهم لسنوات طويلة قادمة.

---

(١) انظر:عبد النبي اصطيف، "أصالة معاصرة في مفاهيم الشعر والنثر عند أبي حيان التوحيدي"، الموقف الأدبي (دمشق)، العدد ٩١، تشرين الثاني ١٩٧٨، ص ص (١٠٩-١٢٤).